

البعد العالمي للفكر التأويلي*

محمد شوقي الزين (فرنسا)

ترجمة عن الفرنسية : عبدالقادر بودومة

وهران - لجزائر

فى ١١ فبراير ٢٠٠٠ احتفل الفيلسوف الألماني هانس غيورغ غارامير بعيد ميلاده المئوى . وبهذه المناسبة الجليلة، نظمت جامعة هايدبيرغ حفلا فخما على شرفه ، مع العلم بأنه زاول التدريس بهذه الجامعة لعدة عقود . ولد غادامير فى ماربورغ بالمانيا سنة ١٩٠٠ ، درس الفلسفة عند هُسيرل وهيدغر . وفى سنة ١٩٦٠ قام بنشر أولى أعماله المهمة «الحقيقة والمنهج : المعالم الكبرى للتأويل الفلسفى» والذى تم ترجمته كاملا سنة ١٩٩٦ إلى الفرنسية . وسيصبح هذا الكتاب الجزء الأول من موسوعة غادامير التأويلية التى تضم عشرة أجزاء ، كل جزء يحتوى على ٥٠٠ صفحة تقريبا . فهو عمل شاق وطويل بادره غادامير فى جمع أعماله ابتداء من سنة ١٩٨٦ . إن «الحقيقة والمنهج» عبارة عن قاعدة للفكر التأويلى أو بالأحرى مقال فى المنهج التأويلى له علاقة بالأبعاد الثلاثة للتجربة الإنسانية وهى : الفن والتاريخ واللغة . يتعلق الأمر أيضا بتاريخ الأفكار التأويلية منذ الفلسفة الأخرى وحتى العصور الحديثة مروراً بالفكر الوسيط ثم الأنوار والنهضة . لكن «الحقيقة والمنهج» ليس مجرد دراسة وصفية للمنهج الهيرمينوطيقى ولنظريات التأويل منذ فيلون وأغسطين حتى شلايرماخر ودلتاى مروراً بلوثر وفلاسيوس ودانهاور ، بل هو يعكس مقاربة نقدية للفكر التأويلى، مثلما يتجلى فى الميادين الثلاثة : الفن والتاريخ واللغة .

(*) نص قدمه الكاتب فى الذكرى المئوية لميلاد غادامير ونشره فى جريدة «لوتراكت» الفلسفية، جامعة كويبيك فى تروا - ريشير (كندا) ، المجلد الأول ، العدد الثانى ، خريف ٢٠٠٠ ، ص ١٦ .

عمل غدامير على تبيان الطابع العالمى للفكر التأويلى والذى لا ينحصر فى تأويل النصوص الفلسفية والأدبية والدينية والقانونية وإنما يعالج التجربة الإنسانية فى شموليتها . هكذا تتسع حلقة الهيرمينوطيقا لتدل على قراءة مواظبة ونقدية للفكر الإنسانى . صحيح أن كتاب «الحقيقة والمنهج» وظف «مفتاح» الهيرمينوطية (كلافيس باللاتينية) كأداة تأويل النصوص والآثار لفتح أقفال التراث الدينى والأدبى والفلسفى ، ولكنه يُعتبر قبل كل شىء بياناً من أجل التجربة الإنسانية ، فهو عبارة عن ازاحة ذات طابع ابستمولوجى تخترق سُمك التراث وتتجاوز إطاره النصى الذى ينغلق فيه هذا التراث لتتعلق براهنية الفكر وطريقة تحويل النص الصامت والجامد إلى كائن خلاق يتجاوز ذاته بقدر ما يتجاوز الواقع الذى يدل عليه . والوسيط الضرورى والكافى الذى يربط الفكر بالواقع هو «اللغة» .

لكن هابرماس ينتقد هذا المسار اللغوى فى فلسفة غدامير ولم يتردد فى نعت هذه الفلسفة بوصفها «مثالية لغوية» . فهو يعتبر أن غدامير جعل من اللغة معيار جميع الأشياء وأهمل الطابع الايديولوجى الذى تنطوى عليه . فضلا عن ذلك ، ليس الخطاب مجرد كيان لغوى يحمل المعنى فى خلوصه ولطافته ، ولكنه ، قبل كل شىء ، سلطة وممارسة إجتماعية لا ينفك عن إكراه قسرى وهيمنة . الشىء الذى يبرر نقد هابرماس هو العبارة الشهيرة لغدامير : «الكائن الوحيد الممكن فهمه هو اللغة» . إذن الفهم الممكن . من هذا المنظور ، هو اللغة بوصفها دليل الواقع ومرآة الأحداث . لكن قد نقع فى فخ القراءة الساذجة والاختزالية إذا إكتفينا بإثبات أن اللغة هى البعد الوحيد للتجربة الإنسانية الذى يحدد المكونات الأخرى للحقيقة البشرية . فهم اللغة هو ، حسب غدامير ، إمكانية فى التدليل على «تناهى» التجربة الإنسانية وأن اللغة لا يمكنها استنفاد ما تعبر عنه أو تريد التعبير عنه . هناك دوما «إرادة فى التعبير» التى تجعل من اللغة كيانا لا نهائيا توطره جدلية «السؤال» و«الجواب» . فليست الأسئلة والأجوبة مسالة وبحثا عن الحلول ، وإنما أيضا نقدا وحوارا .

هكذا تتأسس الحقيقة الإنسانية على هذه الجدلية التي تؤول الى حوار مستمر، وهو حوار لا يتم فقط بين ذاتين أو وعيين ، وإنما أيضا فى صلب الوعى أو فى الهوية ذاتها . فهو عبارة عن «مونولوج» يجعل من الذات على خلاف ما هى عليه ولا تتوان عن المساعلة والمجازة . هذا «المونولوج» الخلاق وجده غدامير عند أوغسطين وأعاد استثمار مفهوم «اللفظ الجوانى» كإرادة ملازمة للتجربة الإنسانية والتي تدفع الذات إلى إقامة علاقة حوار مع الذات وأشياء العالم . هكذا تصبح اللغة فضاء التواصل والحوار غير المحتمل بين الحاضر والماضى أو الأنا والآخر أو «النحن» و«التراث» .

إن البعد العالمى للفكر التأويلى هو إنتاج الحقيقة وصناعة التجربة الإنسانية فى «عالم التأويل أو التأويل بوصفه «عالما» أو «حقلا» فنيا وتاريخيا وألسنياً تتشكل فيه التجربة الإنسانية وتتواصل فيه الذات بوصفها كائنات متناهية عبر اللغة كحقيقة لا نهاية لا تستنفد منطوقاتها أو لفظها الجوانى اللانهائى واللامستنفد . إن تأويلية غدامير لا علاقة لها باللغة كمونادات لغوية عذرات منطقية أو هندسة نحوية ، وإنما هى حقيقة براغماتية وتواصلية . إنها باختصار البعد الكونى للفهم كحوار وتواصل .